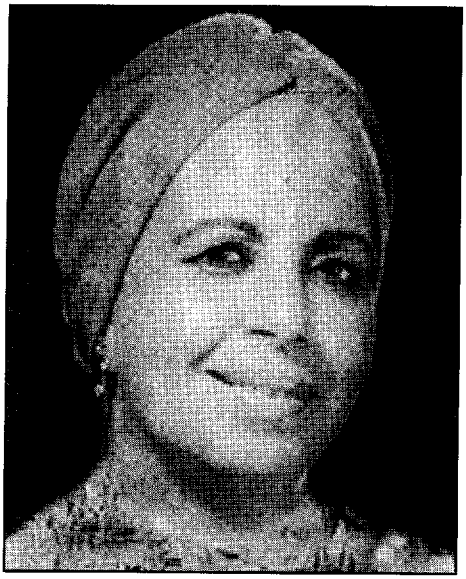

د. نعمات أحمد فؤاد

د. نعمات أحمد فؤاد

«وملحمة أمة»

«هي بنت النيل والأهرام...

هي بنت مصر والأيام»...

«هي من تبنت قضايا، ودافعت عن قضايا، وتحدت كل من وقف ضد قضايا خلود آثار مصر. وكان أن أحبت مصر.. في سحرها وأنغامها، وعاشت تعشق نغم مصر الأصيل.. أم كلثوم».

التي ولدتها مصر.. فخلدت عشقها في كتابها.. «أم كلثوم.. وعصر من الفن».

لقد كتبت.. د. نعمات أحمد فؤاد.. خطاباً إلى حبيبة الملايين (أم كلثوم) ظلت تعتز به، وتحتفظ به، حتى قبل أن ترى كل منهما الأخرى.

وكانت نعمات أحمد فؤاد طالبة بالجامعة حين أرسلت هذا الخطاب.

إنه عشق الفن.. للفن.. أو الأدب للفن..

والآن تناجيها عاشقة الفن بقولها:

«أيها الصوت من السماء

بعد هذا الخطاب.. سأكتب إليك، لأني اتصلت بك، وأخذت أقرؤك بأذني.. وعينيّ ووجداني.

والآن طارت «حمامة إليك».

ومن جديد.. سأكتب إليك، من أجل عينيك، وستصلك رسائلي عبر الأرض.. إلى السماء، ترفرف على جناحي ملك.. يصل هتفه من مصر.. بنبضة من مصر.. التي وصلت بين قلبينا بالانتماء والولاء.. والغناء».

وأم كلثوم كما يوضحها هذا الكتاب: خيط طويل من خيوط كثيرة متوازية حيناً.. ومتشابكة أحياناً، تلتقي.. وتتفرق وتتشابه.. وتتميز، ولكنها.. كلها بعد هذا.. بمجموعها.. بمتناقضاتها واتساقاتها تكوِّن النسيج العريض الذي نسميه..

«الفن العربي الحديث».

أم كلثوم.. كفن.. وكحياة.. مادة غنية للكتابة.. لأنها امتدت بامتداد النهضة، ولدت في بواكيرها وشبَّت معها.. وتطورت بتطورها، وأخذت منها.. وأعطتها، وتمثلتها ومثَّلتها وتركت في النهاية بصماتها عليها.

وأم كلثوم، كشخصية مصرية، جزء من شخصية مصر هذه.. كما تقول «نعمات أحمد فؤاد» هي قبلتها.. والمحراب.. وسطورها.. صلاة.

وأم كلثوم.. عطاء مصر في الفن، طرحتها الأرض السمراء الخصبة الطيبة، وصاغتها من المنجم الفتى الذي صاغت منه العقَّاد والحكيم والزيات وطه حسين.. والشيخ محمد عبده.. ومصطفى كامل.. ومحمد فريد والرجال والنساء ممن شكلت.. حيواتهم.. إضافات جديدة.

وأم كلثوم، كشخصية عربية، خليقة بالكتابة والتحليل.. بما جمعت من قلوب العرب، ووحّدت من كلمتهم ما عجزت عنه السياسات والإذاعات.. والدعايات.. والصحف.

فالعرب لم يلتقوا من الخليج إلى المحيط.. في اتفاق ورضا.. حول أحد.. كائناً من كان، بدون غضاضة أو شائبة، كما التقوا.. واتفقوا على «أم كلثوم».

«أم كلثوم» - وعصر من الفن

كانت.. المركب «في مصر القديمة.. محبة.. بما وصلت بين المصريين والنيل.

وكانت أم كلثوم.. في مصر الحديثة.. محبة. بما وصلت بين المصريين والعرب، والمولودة.. بنت».

كان إبراهيم السيد البلتاجي مؤذن مسجد قرية طماي الزهايرة، وكان مع الآذان ينشد التواشيح.. وكانت زوجته السيدة فاطمة المليجي.. مشغولة عن التواشيح.. وصاحبها بنفسها، فقد كانت حاملاً في شهرها الأخير، ولعل زوجها كان يتقرب إلى الرسول بالتواشيح والمدائح، ليكون المولود

«ذكراً» يكون لخالد أخاً. . وله سنداً. . وعزوة كما يقول أهل القرية. . الذين يرون الخير في ولادة الذكور. أما البنات فعبء يخفِّفون وقعه على صاحبه. . بقولهم المشهور. . والسائد. . في مصر عموماً: إن ربنا يقول للبنت ساعة مولدها: «أنا معين ويَّا أبوك».

أين هذا من «الولد» الذي يؤكد. . عجائز كل قرية. . أن الملائكة تطلع في مواكب رافعة الرايات تزف البشرى إلى الله؟!.

على كل حال، كانت السيدة فاطمة في هذه المرحلة، من حملها، تطوف برأسها كل هذه الخرافات، ويرن في سمعها. . قولهم: إن الموجة في البحر. . تقف. . عند ولادة البنت. . كأن الطبيعة هي الأخرى متحيزة للولد.

كانت المرأة المسكينة تتألم في صمت. وفي صمت أيضاً. . تتمنى أن (تخاوي) خالداً حتى لا يطلع (وحداني).

وجاءت ساعة المولد. . وأحاط بفاطمة جاراتها القريبات، وكل واحدة تتمنى لفاطمة أن يتكرم عليها ربنا. . بولد، ولم تفكر واحدة منهن في صحة الأم. . المهم. . ولد.

وأخذت السيدة فاطمة في الوضع يرهقها الألم. . والخوف، فقد كانت هذه التمنيات العالية الصوت تعني. . أن المسكينة إذا ولدت بنتاً بعد كل هذا، فهي سيئة الحظ على الأقل.

في هذا الجو المشحون شق فضاء الحجرة الضيقة التي يزيدها ضيقاً. . البلاص الكبير. . وتزحمها المقاطف التي يصطدم بها السائرون. . وما أكثرهم. . في هذا اليوم، شق فضاء الحجرة صراخ مولود، وانصرف الكل عن الأم ليتطلعوا إلى نوع الوليد. . وتقاربت الرؤوس الساذجة التي تغطيها طرح سوداء تتهامس بالعيون. . وبالكلام الصريح.

«بنت ولاّ ولد؟. . بنت ولاّ ولد؟». . وقالت القابلة في صوت كسير خافت وكأنما ألقي عليها ماء بارد: «بنت»!

وتطوعت الحاضرات بكلمة معلش رزقها برزقين، كأن الأمر يحتاج إلى عزاء وما درت كل بلهاء.. أن القدر في هذه اللحظة قد فتح صفحة جديدة في حياة الأسرة المتواضعة لا بل في حياة مصر كلها، حين حسب الجيران من أهل قرية طماي الزهايرة.. أن الأمر لم يزد عن ميلاد بنية (مكسورة الجناح) كغيرها من سائر البنات.

أسطورة «القرن العشرين» «كوكب الشرق» - أم كلثوم -

وابتسم القدر.

وابتسم أيضاً شهر ديسمبر.. فقد ظفر بمسك الختام. وابتسم معه شهر يناير من العام التالي، فقد كانت له المولودة.. الموعودة والواعدة.. براعة استهلال.

ويقال: إن الشيخ إبراهيم في تلك الليلة التي وافقت ٢٧ من رمضان كان يتهجد في المسجد خالصاً لله في ليلة القدر، وأخذته سِنَة من نوم فرأى في المنام سيدة.. تجلِّلها الثياب البيض، ويشع وجهها نوراً، وتقدمت منه السيدة.. وأعطته لفافة خضراء فلما فتحها متهيباً، وجد في داخلها شيئاً له بريق يخطف الأبصار، فسأل السيدة عما بيده.. فقالت:

- هذه جوهرة.. وبشرى السعد.. حافظ عليها. والتفت إليها الرجل، ولم يفق من دهشته بعد.. يسألها متوسلاً من تكون؟.. قالت:

ـ أنا أم كلثوم بنت النبي محمد.

ويفسر العقاد الذي عنده الجواب لكل سؤال حائر معنى «الكلثوم»:

معاني «الكلثوم» في العربية متعددة، ومنها الحرير الذي يوضع على رأس العلم. و«أم كلثوم» إذاً.. هي راية متوَّجة بالحرير.

وبعد جيلين، يطلق أديب مرموق.. هو الأستاذ نجيب محفوظ، على ابنته الاسم الذي لم يعجب فلاّحات طماي الزهايرة من نصف قرن.. إن الاسم في هذه المرة. تيمُّن.. بأم كلثوم.

ومن باب التيمُّن أيضاً والوفاء، أطلق على القرية نفسها اسم «أم كلثوم» فقد قرر مجلس محافظة الدقهلية في سبتمبر ١٩٦٤م تسمية (طماي الزهايرة) بقرية «أم كلثوم».

القرن التاسع عشر:

«وعرفت أم كلثوم الفن، ووجدت طريقها.. فلما تقدم إليها في ذلك الوقت.. (الخُطَّاب) ومن بينهم العمدة الثري، والتاجر المليء، لم يفلح معها الثراء.. والإغراء.. بكل ألوانه، لقد اختارت الفن».

القرن العشرون:

كان يوم الخميس الأول من كل شهر.. ملكاً كاملاً.. لأم كلثوم، وقد قررت الإذاعة المصرية أن يكون ملكاً لها أبداً.. بما تذيعه.. وستذيعه لها.. وعنها.. في الموعد نفسه.. من كل شهر.

ممجدة في الدنيا..

ممجدة.. في الآخرة.

عاشت كما لم يعش أحد.

وظفرت من الحب والتعظيم.. وعلو المكان.. وسمو الاسم.. بما لم يظفر به أحد، وإنها.. كأبطال الإغريق.. في قدرتهم الفنية.. وقدرتهم الجسمية الخارقة.

«أم كلثوم» بين الأمس.. واليوم

لقد كانت أم كلثوم.. ظاهرة في الحياة، وظاهرة في الممات، صفت تاريخاً.. وصافاها تاريخ.

وفي الشخصيات التاريخية بين النساء.. تجد «الذكاء» حيناً، أساساً في تاريخية «سيدة من سيدات التاريخ»، وآناً.. نجد الجمال.. والظُّرف.. وأحياناً نجد الفن.

وآونة أخرى.. نجد «البطولة سياسية أو حربية مثل حتشبسوت وتينشري، ولكن «أم كلثوم» شخصية تاريخية بكل هذه المقاييس، بما تهيّأ لها من ذكاء وظُرف روح.. ولطف إحساس.. وفن غناء وفن أداء.. وأسلوب شخصية.

أم كلثوم.. شخصية تاريخية.. بالمواقف الحضارية، فتزعُّمها للتجمع الوطني في محنة ١٩٦٧م ودورها السياسي والحربي.. بما جمعت للمعركة من عملة صعبة ومن قلوب الناس، وتأييدهم وهو «عملة أصعب» عامل محسوب، فيما أحرز الرجال.. من نصر في الميدان.

أم كلثوم.. شخصية تاريخية.. بمقياس القومية العربية، بما ربطت من شعوب العرب في مختلف ديارهم، حتى في إبّان انقساماتهم الشخصية..

والرسمية.. كان صوتها يجمعهم، وكأنه مغفرة.. وكأنها عاصمة فنية لهم.. يتقاربون فيها.. ويتقربون إليها.. إذا تباعدت العواصم السياسية.

كانت «محبة» بما أيقظت من عواطف، وما ألَّفت من «شعوب».

وكانت.. خيراً بما درَّ فنها.. على وطنها.. في الحياة وبعد الحياة.

وكانت علامة مميزة.. بما أضافت إلى الفن، وأضفت على الفنان.

وكانت رمزاً بما مثَّلت من معان.. وقيم.

وهي بهذه الأبعاد كلها.. أكبر كثيراً من مطربة.. «إنها ملحمة أمة».

لقد خلَّدت د. نعمات أحمد فؤاد بكتابها «أم كلثوم.. وعصر من الفن» نفسها كأديبة، وكفنانة وضعت تمازجاً.. بل تزاوجاً.. بين الأدب.. والفن، وكان لها في شخصية الأديبة الفنانة الخالدة «أم كلثوم» أكبر من معين على تخليد شخصية نسائية أثرت العالم كله بما قدمت إليه من مواهب أصيلة، ومن عطاء متأصل في نفسها.. من منبت طبيعتها الريفية.. الخيِّرة.. المعطاءة، وهذا هو.. قلم المرأة الكاتبة.. ولغتها الأدبية والشعرية.. والفنية.

* * *